شرحُ نصوص مُختارة

من الكتاب والسنّة وكلام الأئمّة

الجزء الأوّل

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:« لا يزال الناس يسألونكم عن العِلم حتى يقولوا: هذا اللهُ خلقَنا، فمَن خلقَ اللهَ؟»

اختيار وشرح

أ.د/ أحمد بن صالح الزهراني

عضو هيئة التدريس بقسم الشريعة والدراسات الإسلامية

جامعة الملك عبدالعزيز بجدة

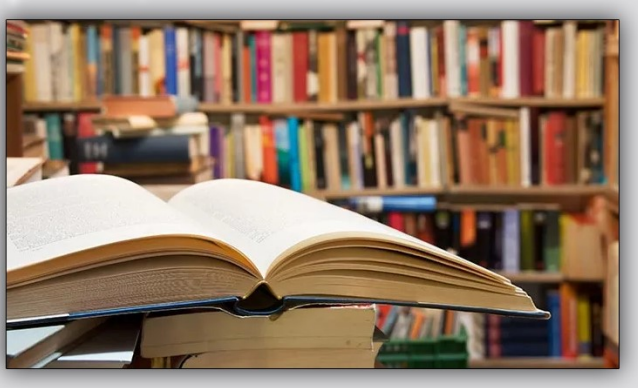

١٤٤٦/٤ هـ

المزيد من كتب الدكتور
أحمد الزهراني

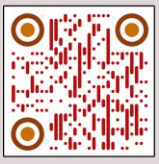

المزيد من الكتب
على المنصّة

جميع الحقوق محفوظة

منصة أوراق عربية - www.aawraq.com
أحد مشاريع مؤسسة الأوراق الثقافية للنشر الإلكتروني .
ترخيص وزارة الإعلام رقم (١٤٩٨٣٧)
موقعها الجغرافي : جدة - المملكة العربية السعودية
هاتف: (٠٥٤٤٥٠٢٤٨٣)
البريد الإلكتروني للمؤسسة والمنصة : tinfo@aawraq.com

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة المنصة (أوراق عربية)
حقوق النشر الخاصة بالكتاب محفوظة للمؤلف

تنبيه
الآراء المنشورة في الكتاب تعبر عن رأي المؤلف ومنصة (أوراق عربية) لا تتحمل أي مسؤولية أدبية أو قانونية

شرحُ نُصوص مُختارة

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمة

الحمدُلله، نحمدُه تعالى ونستعينُه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أمّا بعد:

فهذا هو الجزء الأوّل من سلسلة (**شرح نصوص مختارة .. من الكتاب والسنة وكلام الأئمّة**)، ويتناول قوله ﷺ: «**لايزال الناس يسألونكم عن العلم حتى يقولوا: هذا الله خلقنا، فمَن خَلَق الله؟**».

وهذه السلسلة هي مجموعة أبحاث تجمعت عندي، فآثرت أن أنظمها في سلسلة بهذا العنوان، ليكون الانطلاق في طرق المسائل العلمية من نصوص الوحي أو من كلام أئمّة السف وأهل العلم في الدين عقيدة وشريعة.

وحرصت أن لا تكون خليّة من جديد إما في ترتيب، أو جمع نصوص، أو توجيه كلام، ونحو ذلك كما قال السّبكي: «وأنا دائماً أستهجن ممّن يدّعي التّحقيق من العلماء إعادة ما ذكره الماضون، إذا لم يضم إلى الإعادة تنكيتاً عليهم، أو زيادة قيدٍ أهملوه، أو تحقيقٍ تركوه أو نحو ذلك مما هو مرام المحققين،... إنّما الحَبْر من يملي عليه قلبه ودماغه»[1].

وقد اخترت أن تكون متوسطة بين الاختصار المخل والتطويل الممل، صالحة لصغار الطلبة من أمثالي، تاركا التطويل والإسهاب لمن مكّنهم الله من وديان العلم وشعابه، من أهل الدراية بالعلم بالكتاب والسنة.

ولم أقله بكثرة التراجم والحواشي، بل كل ما يُستغنى عنه مما ليس من صميم البحث فإني أدعه لفطنة القارئ ودرايته، الذي أظنه لا يخفى عليه ولا يصعب أن يجده في مظانه من المصادر، خاصة مع توفر محركات البحث وخزائن الكتب الإلكترونية.

أسأل الله تعالى أن لا يحرمني أجره، وأن يكفيني أشره وبطره، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

أ.د/ أحمد بن صالح الزهراني

https://prof-ahmadza.com/

azahrany@gmail.com

(١) طبقات الشافعية الكبرى (١/ ٩٩ـ١٠٠) بتصرف.

(١)

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « **لايزال الناس يسألونكم عن العلم حتى يقولوا: هذا الله خلقنا، فمَن خلق الله؟**» قال: وهو آخذ بيد رجل -يعني قد سأله- فقال: «صدق الله ورسولُه، قد سألني اثنان وهذا الثالث»[(١)].

زاد في رواية عند مسلم: «**فمن وجد من ذلك شيئا فليقل: آمنت بالله**»[(٢)] وفي لفظ مقارب: «**يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا من خلق كذا حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته**»[(٣)].

وفي رواية خارج الصحيح: « **فإذا قالوا ذلك فقل: ﴿اللهُ أَحَد، اللهُ الصّمَد، لم يَلِدْ ولم يُوْلَد، ولَم يكُن له كُفُوا﴾ [الإخلاص: ٢] أحد، ثم ليتفل عن يساره، وليستعذ بالله من الشيطان**»[(٤)].

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٥)، ومثله عن أنس بن مالك رضي الله عنه أخرجه البخاري (٧٢٩٦) ومسلم (١٣٦).

(٢) صحيح مسلم (١٣٤).

(٣) صحيح البخاري (٣٢٧٦) ومسلم (١٣٤).

(٤) السنة لابن أبي عاصم (٦٥٣).

حديث أبي هريرة رضي الله عنه يتحدث عن بحث الإنسان الأزلي في مسائل الماورائيات بشكل عام، وعن مبدء الخلق بشكل خاص، وهذا البحث الفضولي له ما يسوّغه بلاشك، فالإنسان دون أن يعلم أجوبة هذه الأسئلة يبقى في عماية وتيه لا حدود لها.

ولولا حاجة العبد إلى هذه المعرفة ما أنزل الله كتبه ولا أرسل رسله، حتى لا يبقى الإنسان في حال الضلالة والتيه التي سمّاها القرآن (سُدى)، ﴿أيحسَبُ الإِنْسانُ أن يُترَكَ سُدَى﴾[القيامة:].

والله سبحانه من رحمته بعباده بين لهم من المعرفة كل ما تحقق فيها شرطان، الأوّل منهما: حاجة العبد إلى معرفته، والآخر منهما: دخول هذه المعرفة في نطاق القدرة العقلية للبشر.

فكل ما اختل فيه أحد الشرطين أو كلاهما من المعارف فإنّ الله حجبه عن العبد رحمة به من جهة وابتلاء له من جهة.

أمّا الابتلاء فكما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

وأما الرحمة فكما قال عزّوجلّ: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [المائدة: ١٠١].

وهذا يعني أنّ هناك فجوة من المعرفة لن تزال موجودة في هيكل المعرفة الإنسانية، وهي منطقة الغيب التي يؤمر فيها العبد بالقبول والتصديق لها، وهذه الفجوة رغم وجودها فهي لا تؤثر على طبيعة الابتلاء وصحّته، ولا تمنع الامتثال، ولا تسبب اضطراباً معرفياً أو وجدانياً

لأنّها وإن كانت غيباً في مضمونها فهي حقيقية ومتسقة مع سلسلة المعارف التي وهبها الله للبشر، ولهذا لم تكن مانعا للجيل الأوّل جيل أصحاب النّبيّ ﷺ من بلوغ أعلى المراتب في الإيمان والصحة النفسية والقوة الشخصية العلمية والعملية، ولم تمنعهم كذلك من بناء الأمة وتشكيل الدولة وبسط الشريعة في أرجاء الأرض حتى دخل الناس في دين الله افواجاً طوعاً أو كرهاً.

لكن ومع هذا فإن هذه الفجوة تبقى نقطة الضعف عند الإنسان ويظل الشيطان يغزوه منها المرة بعد المرة تشكيكا له وإزعاجا عقليا ونفسيا وذلك بطرح التساؤلات التي لا يملك العقل فيها جوابا كافيا مسكتا لأنّه بكل بساطة عقل محدود الإمكانيات، حدوده التصورية والحكمية مهما بلغ من العلم والقدرة فهو محدود، لا يستطيع تصور كثير من الأشياء التي يلامسها ويتعامل معها يوميا ولا يعرف حقيقة كُنْهها فما بالك حين يكون الأمر متعلقا بمبدأ الوجود، حيث كان العبد غير موجود وقتها فلم ير ولا يُخبر ولم يسمع.

وأعظم ذلك وأخطره السؤال عن الله تعالى، عن ذاته وصفاته وأفعاله، وقمة الخطر حين يكون عن وجوده تعالى.

وهذه الأسئلة والتطلع لها موجود منذ الأزل ولا يزال الشيطان يوردها على كل أحد يؤمن بوجود خالق للكون، ولم يكن المسلمون بمعزل عنها بلاشك، بل هم أولى الناس بحرب الشيطان إذ هم أقرب الناس إلى الله، وأكثرهم إيماناً، كما قال ابن عباس لمن قال له :إنّ اليهود تزعم إنها لا توسوس في صلاتها؟ فقال: «وما يفعل الشيطان بالبيت الخراب».

وهذا الأمر عالجه الشرع على لسان النّبيّ ﷺ، فقد ورد منه التوجيه ابتداء كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أعلاه.

وورد عنه كذلك التوجيه ردا على من شكا إليه من الصحابة توارد هذه الخواطر وأمثالها على النفس، فعن أبي هريرة؛ قال: جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: «**وقد وجدتموه؟**» قالوا: نعم، قال«**ذاك صريح الإيمان**»(١).

وقد تضمّن توجيهه ﷺ أمرين مهمين: الأوّل: علاج المشكلة من جهة عَملية حين أمر بالانتهاء والكف عن التفكير في الأمر، مع الاستعاذة بالله من الشيطان، وهذا يعني أنّ السؤال المطروح لا ينتج علما، ولو كان ينتج علما لأجاب النّبيّ ﷺ، وإنما بينه انه وسوسة يعني أنّ الجواب عن هذا السؤال مجرد مدخل لسؤال آخر يولد سؤالا غيره حتى يدخل العبد في مرحلة الشك والاضطراب ومن ثم الإنكار والإلحاد.

والتوجيه الآخر علاج المصاب نفسه الذي تورثه هذه الوساوس شكا في إيمانه وظنا أنه فاسد الإيمان إذ تواردت عليه، فأخبرهم ﷺ أنّ ورودها دليل على صحة الإيمان وصحة الطريق الذي تسلكونه ولو ذاك ما اعترضك قاطع الطريق أعني الشيطان بوسوسته.

وسأبدأ بذكر أهم ما قيل في شرح الحديث من كلام أئمة العلم، ثم أعقب بفوائد وإضافات.

قال الخطابي: «وجْه الحديث ومعناه ترك الفكر فيما يخطر بالقلب من وساوس الشيطان، والامتناع من قبولها، واللّياذ بالله عز وجل في الاستعاذة منه، والكفّ عن مجاراته في حديث النّفس ومطاولته في المحاجّة والمناظرة، والاشتغال بالجواب على ما يوجبه حقّ النّظر في مثله لو كان المناظِر عليه بَشراً وكلّمك في مثل ذلك، فإنّ من ناظرك وتسمع كلامه ويسمع كلامك لا يمكنه أن يغالطك فيما يجري بينكما من الكلام حتى يخرجك من حدود النّظر ورسوم الجدل،

(١) صحيح مسلم (١٣٢).

فإنّ باب السؤال والجواب وما يجري فيه من المعارضة والمناقضة معلوم، والأمر فيه محدود محصور، فإذا رعيت الطريقة وأصبت الحجة وألزمتها خصمك انقطع وكفيت مؤنته، وحسمت شغبه.

وباب ما يوسوس به الشيطان إليك غير محدود ولا متناهٍ، لأنك كلما ألزمته حجّةً وأفسدت عليه مذهباً راغ إلى نوع آخر من الوساوس التي أعطي التسليط فيها عليك، فهو لا يزال يوسوس إليك حتى يؤديك إلى الحيرة والضلال، فأرشد النبي ﷺ عندما يعرض من وساوسه في هذا الباب إلى الاستعاذة بالله من شرّه، والانتهاء عن مراجعته، وحسم الباب فيه بالإعراض عنه والاستعاذة بذكر الله، والاشتغال بأمرٍ سواه، وهذا حيلة بليغة وجُنّة حصينة يخزى معها الشيطان ويبطل كيده.

قلت: ولو أراد النبي ﷺ محاجّته وأذن في مراجعته والردّ عليه فيما يوسوس به لكان الأمر على كلّ مُوحّد سهلاً في قَمعه، وإبطال قوله، فإنه لو يقدّر أن يكون السائل عن مثل هذا واحداً من البشر لكان جوابه والنقض عليه مُتَلقّى من سؤاله، ومأخوذاً من فحوى كلامه، وذلك أنّه اذا قال: هذا الله خلْقُ فمن الذي خلقه؟ فقد نقض بأوّل كلامه آخرَه، وأعطى أن لا شيء يتوهم دخوله تحت هذه الصفة من ملَك وإنس وجِن ونوع من أنواع الحيوان الذي يتأتّى منه فعل، لأنّ جميع ذلك واقع تحت اسم الخلق، فلم يبق للمطالبة مع هذا محل ولا قرار[1].

(١) فيه أنّ السائل ليس همته من الذي خالق الخالق تعالى وإنما همته مبدأ الخالق فلا يقطعه أن يُقال له مثل هذا الجواب.

وأيضا فلو جاز على هذه المقدمة أن يسأل فيقال من خلق الله؟ فيُسمّى شيء من الأشياء يُدّعى له هذا الوصف لَلَزِم أن يقال: ومن خلق ذلك الشيء، ولامتدّ القول في ذلك إلى مالا يتناهى، والقول بما لا يتناهى فاسد، فسقط السؤال من أصله[1].

ومما كان يقال لمن يسأل هذا السؤال: إنما وجب إثبات الصانع الواحد لما اقتضاه أوصاف الخليقة من سمات الحَدث الموجبة أن لها مُحدِثاً، فقلنا: إنّ لها خالقاً، ونحن لم نشاهد الخالق عيانا فنحيط بكنهه، ولم يصح لنا أن نصفه بصفات الخلق فيلزمنا أن نقول إنّ له خالقاً، والشاهد لا يدلّ على مثله في الغائب، وإنما يدل على فعله، والاستدلال إنما يكون بين المختلفات دون المشتبهات، والمفعول لا يشبه فاعله في شئ من نعوته الخاصّة، فبطل ما يقع في الوهم من اقتضاء خالق لمن خلق الخلق كلّه[2].

ولو صرنا نكثر في هذا لدخلنا في نوع ما نهينا عنه فيما رويناه من الحديث فإذن نتهي إلى ما أُمرنا به من حسم هذا الباب في مناظرة الشيطان، لجهله وقلّة إنصافه وكثرة شغبه، وقد تواصى الحكماء فيما دوّنوه ورسموه من حدود الجدل وآداب النظر بترك مناظرة من هذا صفته، وأمروا بالسكوت والإعراض عنه»[3].

قال ابن حجر: «والذي نحا إليه من التفرقة بين وسوسة الشيطان ومخاطبة البشر فيه نظر، لأنه ثبت في مسلم من طريق هشام بن عروة عن أبيه في هذا الحديث: "**لا يزال الناس**

(١) فيه أنّ هذا افتراض على تسليم الخصم بامتناع التسلسل في المؤثرين لكن الخصم جَدِل وقد لا يُسلّم بهذا ويغالط، وقد يطلب إقرارك كذلك بامتناع وجود موجود بلا موجد.

(٢) هذا جواب صحيح، ولكنه لا يقطع المغالِط، لأنه يطلب الحجة العقلية على وجوب وجود الخالق تعالى بلا أوّل ولا موجد.

(٣) أعلام الحديث (٣/ ١٥١١).

يتساءلون حتى يقال هذا خلق الله الخلق فمن خلق الله فمن وجد من ذلك شيئا فليقل آمنت بالله" فسوّى في الكفّ عن الخوض في ذلك بين كل سائل عن ذلك من بَشَر وغيره، وفي رواية لمسلم عن أبي هريرة قال: "سألني عنها اثنان"»[1].

قال المازري: «والذي يقال فى هذا المعنى: إن الخواطر على قسمين، فأما التى ليست بمستقرة ولا اجتلبتها شبهة طرأت فهى التى تُدْفَع بالإعراض عنها، على هذا يحملُ الحديث، وعلى مثلها يخطلق اسم الوسوسة، فكأنه لما كان أمرًا طارئًا على غير أصل دُفِع بغير نظر في دليل، إذ لا أصل له يُنَظرُ فيه، وأما الخواطر المستقرة التى أوجبتها الشبْهة فإنها لا تُدفَعُ إلا باستدلالٍ ونظر فى إبطالها، ومن هذا المعنى حديث: " **لا عدوى** "، مع قول الأعْرابى: "فما بال الإبل الصحاح تجربُ بدخول الجمل الأجرْب فيها"، وعَلمَ النبيّ ﷺ أنه أغترَّ بهذا المحسوسِ، وأن الشبهة قَدَحَتْ فى نفسه فأزالها عنه ﷺ من نفسه بالدليل، فقال له: " **فمن أعدى الأول** "»[2].

بسْطُ هذا أنه ﷺ كأنه قال له: إذا كنت تقول أن هذه الجَربَة جَرَبَتْ من هذا العادي عليها، فهذا العادي أيضاً ممَّن تعلَّق به الجرب؟ فإن قلتَ: من غيره ألزمناك فيه ما ألزمناك في الأول حتى يؤدّي ذلك إلى ما لا يتناهى، أو يقف الأمر عند جملٍ وُجِدَ الجربُ فيه من غير أن ينتقل إليه من غيره، وإذا صحَّ وجود جربٍ من غير عدوى بل من الله – سبحانه – صح أن يكون جربُ هذه الإبل من نفسها لا من غيرها.

قال المتكلمون: وهذا الدليلُ الذي أشار إليه ﷺ هو الذي يُعتمدُ عليه فى إبطال قول من جَوَّز وجود حوادثَ لا أوَّل لها، فيقال لهم: لو كان لا يصح وجودُ الشيء إلا من الشيء لأدَّى

(١) فتح الباري لابن حجر (٦/ ٣٤١ ط السلفية).

(٢) أخرجه البخاري (٥٧١٧) ومسلم (٢٢٢٠).

ذلك إلى ما لا يتناهى، وإذا عُلِّقَ وجودُ ما نحن فيه بوجود ما لا يتناهى شيئًا بعدَ شيء لم يصح وجودُ ما نحن فيه»[1].

قال العلامة محمد بن آدم الأثيوبي: «هكذا فرّق المازريّ بين الخواطر المستقرّة وغير المستقرّة، وحمل الحديث على غير المستقرّة، وأما المستقرّة، فلا ينفعها ما ذكره النبيّ ﷺ من الداء، وهكذا نقل النوويّ وصاحب "الفتح" عنه[2]، وأقرّوه عليه، وهذا من الغريب، فإنّ الرسول الذي أرسله الله تعالى لهداية الخلق أجمعين، وإزالة الشُّبَه بأنواعها يصف دواء لهذا الداء، هو من أدوى الأدواء حيث إنه يوسوس في الخالق سبحانه وتعالى، فيقول: "**فإذا بلغ ذلك، فليستعذ بالله، ولينته**"، وما فصّل وما فرّق بين ما استَحْكَم من هذا الداء، وبين ما لم يستحكم، بل أطلق إرشاده، وبيّن أن دواءه هو هذا، وهو في مقام البيان، يحتاج إلى أن يبيّن للأمة الأميّة أتمّ البيان، فلو كان الأمر يحتاج إلى ذلك، لما سكت عنه، فلا يسع العاقل إلا أن يستعمل النصّ العامّ على عمومه، ولا يحمله على الخصوص بدون حجة.

ثم إن هذا الذي ذكره المازريّ من أن الخواطر المستقرّة لا تُدفع إلا بالاستدلال والنظر هو الذي فتح باب الشُّبه والأفكار الخاطئة على المتكلّمين، وأذنابهم، فتاهوا في فيافي الحيرة، ووقعوا في جُحر الشكّ والارتياب لدى بحثهم عن حقيقة ربّ الأرباب، فصار النتيجة أن خرجوا من الدنيا مرتابين معرضين عن ربّهم، متحيّرين هائمين، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وبالجملة، فهذا الباب مرجعه الصحيح، ودواؤه المريح هو الذي جاء في كتاب الله تعالى، وسنّة نبيّه ﷺ، كما أرشد إليه ربنا سبحانه وتعالى، حيث يقول: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]، ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ

(١) المعلم (١/ ٣١٤).

(٢) شرح مسلم (٢/ ١٥٥)، والفتح (٦/ ٣٤١).

جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

وهذا هو منهج السلف الأسلم الأعلم الأحكم»[(١)].

وقال القاضي عياض: «على هذا يحمل ما جاء في الأحاديث الأخر: "**يأتي الشيطان أحدَكم فيقول له: من خلق كذا وكذا؟ حتى يقول: من خلق ربك، فإذا بلغ ذلك فليستَعْذ بالله ولينته**" وفي حديث آخر: "**فليقُل: آمنتُ بالله**".

أما استعاذته منه فليلجأ إلى الله تعالى أن يكفيه شغل سرِّه ووسوسته بما لا يرضاه، وأما قوله: "**ولْيَنْتَه**": أي ليقطع التفكر والنظر فيما زاد على إثبات الذات، وليقف هناك عن التخطّي إلى ما بَعُد، وليعلم أن إثبات ذاته وعلم ما يجبُ له ويستحيل عليه منتهى العلم وغاية مبلغ العقل[(٢)].

وقال بعضهم: قوله: "**ذلك صريح الإيمان**": يعني الوقوف والانقطاع في إخراج الأمر إلى ما لا نهاية له، فلابدّ من إيجاب خالقٍ لا خالق له، فلا يزال يقول: من خلَقَ كذا، ويستدل بآثار الصنعة فيه على أنه مخلوق، فيقولُ: خلقه الله، إلى أن يقول: من خلق الله؟ فيستدل على أنه لو كان له خالق لتسلسل الأمر إلى ما لا نهاية له، وأن الله الخالق لكل شيء لا يُشبه صفات المخلوقين، ولا يصح عليه الحدثُ والخَلْقُ، فالوقوف هنا هو محض الإيمان»[(٣)].

---

(١) البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج (٣/ ٦٣٦).

(٢) هذا هو القول الفصل في جواب السؤال.

(٣) إكمال المعلم (١/ ٤٣٢).

قال ابن الجوزي: «وَفِي الحَدِيث الْخمسين بعد الْمِائَة: "لن يبرح النَّاس يسْأَلُون حَتَّى يَقُولُوا: هَذَا الله خَالق كل شَيْء، فَمن خلق الله؟"».

اعْلَم أَن الباحث عَن هَذَا إِنَّمَا هُوَ الْحس، لِأَن الْحس لم يعرف وجود شَيْء إِلَّا بِشَيْء، وَمن شَيْء، فَأَما الْعقل الَّذِي هُوَ الْحَاكِم الْمَقْطُوع بِحكمِهِ، فقد علم أَنه لابد من خَالق غير مَخْلُوق، إِذْ لَو كَانَ مخلوقا لاحتاج إِلَى خَالق، ثمَّ بتسلسل إِلَى مَا لَا نِهَايَة لَهُ، والمتسلسل بَاطِل، وَإِنَّمَا أثبت الْعقل صانعا، لِأَنَّهُ رأى المحدثات مفتقرة إِلَى مُحدث، فَلَو افْتقر الْمُحدث إِلَى مُحدث كل مُحدثا»[1].

وقال: «فمن ذلك أنه يأتي إِلَى العامي فيحمله عَلَى التفكر فِي ذات اللَّهَّ عز وجل وصفاته فيتشكك وقد أخبر رَسُول اللَّهَّ ﷺ عَنْ ذلك فيما رواه أَبُو هريرة رضي الله عنه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهَّ ﷺ: "تسألون حتى تقولوا هَذَا اللَّهَّ خلقنا فمن خلق اللَّهَّ" قَالَ أَبُو هريرة: فوالله إني لجالس يوما إذ قَالَ لي رجل من أهل العراق: هَذَا اللَّهَّ خَلَقنا فمن خلقَ اللَّهَّ؟ قَالَ أَبُو هريرة: فجعلت أصبعي فِي أذني ثم صحت: صدق رَسُول اللَّهَّ اللَّهَّ الْوَاحِد الأحد الصَّمَد لم يلد ولم يولد ولم يكن لَهُ كفوا أحد.

وبإسناد عَنْ عائشة قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهَّ ﷺ: "إن الشَّيْطَان يَأْتِي أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ مَنْ خَلَقَكَ فَيَقُولُ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَيَقُولُ اللَّهَّ فَيَقُولُ مَنْ خَلَقَ اللَّهَّ فَإِذَا وَجَدَ أَحَدَكُمْ شَيْئًا من ذلك فليقفل آمَنْتُ بِاللَّهَّ وَرَسُولِهِ".

وإنما وقعت هذه المحنة لغلبة الحس وَهُوَ أنه مَا رأى شيئاً إلا مفعولاً، وليقل لهذا العامي: ألست تعلم أنه خلق الزمان لا فِي الزمان، والمكان لا فِي المكان، فَإِذَا كانت هذه الأَرْض وما

(١) كشف المشكل(٣/ ٢٦٨).

فيها لا فِي مكان ولا تحتها شيء وحسّك ينفر من هَذَا لأنه مَا ألف شيئا إلا فِي مكان فلا يطلب بالحس من لا يعرف بالحس وشاور عقلك فإنه سليم المشاورة»[1].

قال ابن هبيرة: «وفيه ما يريده من الشيطان منه، وإنما يوسوس الشيطان بهذا لأهل غلبة الإحساس؛ فأما الذين يعقلون عن الله سبحانه وتعالى، فإنهم يحمون قلوبهم من ذلك التسلسل الذي إذا انتهى إلى الغاية القصوى فيه رجع إلى أول قدم؛ فكان الطارد للوسواس هو قوله: ﴿الله خالق كل شيء﴾، هو الذي يطرد هذا الوسواس عن أن يخطر فيها من الكلام الذي ينتقض فرعه بانتقاض أصله»[2].

وهذا السؤال الذي ذكره النّبيّ ﷺ ترجمته الفسلفية هو التسليم بوجوب التسلسل في المؤثرين أو الخالقين بناء على امتناع وجود ما لا يتناهى أزلا، فنهيه ﷺ عن التفكر في ذلك هو قطع بوجوب انتهاء سلسلة الخالقين أو المؤثرين أو المحدثين إلى واجب الوجوب بذاته لم يخلقه أحد ولا أوّل له، قال ابن تيمية: « ولفظ التسلسل يراد به التسلسل في المؤثرات، وهو أن يكون للحادث فاعل وللفاعل فاعل، وهذا باطل بصريح العقل واتفاق العقلاء، وهذا هو التسلسل الذي أمر التبي ﷺ بأن يستعاذ بالله منه، وأمر بالانتهاء عنه، وأن يقول القائل: آمنت بالله ورسله.

كما في الصحيحين عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: **"يأتي الشيطان أحدكم، فيقول: من خلق كذا؟ حتى يقول له: من خلق ربك؟ فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينته"**.

وفي رواية: **"لا يزال الناس يتساءلون، حتى يقولوا: هذا الله خلق الخلق من خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل: آمنت بالله"** ورواية: **"ورسوله"** وفي رواية: **"لا يزالون بك يا أبا**

(١) تلبيس إبليس (ص٣٤٣).بتصرف يسير.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح (٦/ ٢٢٩).

هريرة حتى يقولوا: هذا الله، فمن خلق الله؟" قال: فبينا أنا في المسجد إذ جاءني ناس من الأعراب، فقالوا: يا أبا هريرة هذا الله خلق الخلق فمن خلق الله؟ قال: فأخذ حصى بكفه فرماهم به، ثم قال: قوموا، قوموا، صدق خليلي.

وفي الصحيح أيضاً عن أنس بن مالك عن رسول ﷺ قال: **"قال الله: إن أمتك لا يزالون يسألون: ما كذا؟ وما كذا؟ حتى يقولوا: هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟"**[1]»[2].

قال ابن القيم: «أرشدَ من بُلِيَ بشيءٍ من وسوسة التَّسلسل في الفاعلين، إذا قيل له: هذا الله خلقَ الخلْقَ، فمَن خلقَ اللهَّ؟ أن يقرأ: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

وكذلك قال ابن عبَّاسٍ لأبي زُمَيل وقد سأله: ما شيءٌ أجده في صدري؟ قال: ما هو؟ قلت: والله لا أتكلَّمُ به، قال فقال لي: أشيءٌ من شكٍّ؟ قلت: بلى، فقال لي: ما نجا من ذلك أحدٌ، فإذا وجدتَ في نفسك شيئًا فقلْ: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

فأرشدهم بهذه الآية إلى بطلان التَّسلسل الباطل ببديهة العقل، وأنَّ سلسلة المخلوقات في ابتدائها تنتهي إلى أوَّلٍ ليس قبله شيءٌ، كما تنتهي في آخرها إلى آخرٍ ليس بعده شيءٌ، كما أنَّ ظهوره هو العلوُّ الذي ليس فوقه فيه شيءٌ، وبطونه هو الإحاطة الَّتي لا يكون دونه فيها شيءٌ، ولو كان قبله شيءٌ يكون مؤثِّرًا فيه لكان ذلك هو الرَّبَّ الخلَّاق، ولا بدَّ أن ينتهي الأمر إلى خالقٍ غير مخلوقٍ، غنيٍّ عن غيره، وكلُّ شيءٍ فقيرٌ إليه، قائمٍ بنفسه، وكلُّ شيءٍ قائمٌ به، موجودٍ بذاته، وكلُّ شيءٍ موجودٌ به، قديمٍ لا أوَّلَ له، وكلُّ ما سواه فوجوده بعد عدمه، باقٍ بذاته،

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٩٦) ومسلم (١٣٦) وهذا لفظه.

(٢) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٣٦٣).

وبقاءُ كلِّ شيءٍ به، فهو الأوَّل الذي ليس قبله شيءٌ، الآخِرُ الذي ليس بعده شيءٌ، الظَّاهر الذي ليس فوقه شيءٌ، الباطن الذي ليس دونه شيءٌ.

وقال ﷺ: "**لا يزالُ النَّاس يتساءلون حتَّى يقول قائلهم: هذا الله خلقَ الخلْقَ، فمن خلقَ اللهَّ؟ فمن وجد من ذلك شيئًا فلْيستعِذْ بالله ولْينتهِ**". وقد قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦]»[(١)].

قال ابن الملقن: «ووجه الحديث: ترك التفكير فيما يخطر في القلب من وساوس الشيطان، والامتناع عن قبولها، والكف عن مجاراته في ذلك، وحسم المادة في ذلك بالإعراض عنه والاستعاذة بذكر الله، ولو أَذِن في مراجعته والرد عليه لكان الرد على كل مُوحّد سهلاً؛ وذلك أنّ جوابه مُتَلقّى من سؤاله، وذلك أنه إذا قال ما تقدم، فقد نقض بأول كلامه آخره؛ لأنه يلزم منه أن يقال: ومن خلق ذلك الشيء، وامتدّ القول في ذلك إلى ما لا يتناهى، والقول (مما)[(٢)] لا يتناهى فاسد فسقط السؤال من أصله.

وأشدّ من هذا الجواب وأحسن في موضع المطالبة أن تقول: دلّنا المُحْدَثِ على مُحْدِث أَحْدَثَه، ومُريد أراده، على الصفة التي وقع عليها، حيًّا قادرًا، فإذا ثبت من هذِه صفاته فلا بد أن يكون قديمًا أو محدَثًا، فإن قلنا: محدَثٌ صار من القسم الأول، وتسلسل القول فيه ولزم القول بالقدم، فإذا ثبت قِدَمه لم يبق إلاّ أن يقال: هو طبيعة، فيسأل الطبائعيين عن هذِه الطبيعة، فإن قالوا: قديمة، فيسألهم هل يوجب أثرها عند وجودها؟ فإن قالوا: نعم، كان باطلاً عيانًا؛ لأنّ سائر المخلوقات تلزم أن توجد كلها قديمة عند وجودها؛ إذ وجودها جملة من وجودهم، ولا

(١) زاد المعاد ط عطاءات العلم (٢/ ٥٣٦).

(٢) هكذا في المطبوع والصواب (بما).

يتراخى منه شيء عن شيء، وهذا مردود عيانًا، وإن قالوا: (هي تريده، يفصل بأسباب)[1] ؛ فقد سلّموا أن القديم مريد قادر، وعاد الخلاف بيننا في تسمية القديم، وإن قالوا: محدثة، أقمنا دليل الحدث ودلت على محدث ويسئل عنه ويتسلسل القول في ذلك»[2].

قلت: رحم الله ابن الملقن فمثل هذه المجادلة هل هي مما يسهل على كل موحد فهمها أو هي محارات عقول ودوامة من التنقل بين مقدمات لا يُدرى أولها من آخرها، ثم هي تنتهي إلى تسليم وجود خالق لا أوّل له، وهذا لا يقطع السؤال لأن الذي يسأله يعرف هذه القطعية لكن سؤاله متضمّن لإنكار هذه الأولية وعدم استيعابها وهذا مما لا طريق له إلاّ التسليم، ولهذا كان جواب النّبيّ ﷺ أسلم وأصحّ واسدّ، ولو هذا السؤال وجوابه سهلاً ما حذّر منه النّبيّ ﷺ أمّته ولما أمرهم بالكف عن مجاراته ولو كان الجواب سهلا على كل موحد ما كان ذلك محيراً لأصحاب محمد ﷺ ومزعجا لهم.

قال المعلمي: «وذلك أن الفطرة والعقل قاضيان بأن الموجود من هذا الأشياء التي نراها لابد له من موجد، وأنه مهما كان لبعضها صانع منها فإن فوقها جميعها رباً هو الموجد الحقيقي. ولكن كثيراً من النفوس لا تقنع بهذا حتى تقول: فهذا الموجد الحقيقي من أوجده؟

فإن قيل: لا موجد له.

قالت: وكيف وجد من غير موجد؟

فإذا قيل: هذا السؤال إنما يأتي فيما ثبت أو جاز أنه لم يكن ثم كان، وذلك كأن تمر ببقعة لا بيت فيها ثم تمر بها وفيها بيت، وكالشمس فإن العقول الفطرية حتى الساذجة تجيز أن يخلق الله تعالى شمساً أخرى غير هذه الشمس، وتجيز أن يكون قد مضى زمان لا شمس فيه ثم خلق الله

(١) هكذا في المطبوع.

(٢) التوضيح لشرح الجامع الصحيح» (١٩/ ٢٠٠).

تعالى هذه الشمس، وهكذا سائر المخلوقات، وإنما قد تتوقف العقول الفطرية في بعض الأشياء التي لا ضير في التوقف فيها من جهة العقل، وذلك كالفضاء والزمان فإنهما أمرين عدميين كما عليه المتكلمون فالأعدام أزلية، وإن كانا موجدين فلا يصلحان ولا واحد منهما أن يكون رباً أو جد هذه الموجودات. والمقصود أنه في مثل البيت والشمس يأتي ذلك السؤال فيقال: لم يكن موجوداً فمن أو جده؟ فأما الموجود الحق الذي ثبت أنه لم يزل فلا يأتي في حقه ذاك السؤال أصلاً.

فقد لا تطمئن النفس لهذا حق الاطمئنان، وقد نبه الشرع على هذا وعلى علاجه، ففي الصحيحين وغيرهما من طرق عن أبي هريرة: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "**يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته**"، وفيهما من حديث أنس: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "**لن يبرح الناس يتساءلون حتى يقولوا: هذا الله خالق كل شيء فمن خلق الله؟**" وفي مسند أحمد من حديث عائشة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم نحوالأول وفيه: "**فإذا وجد أحدكم ذلك فليقل: آمنت بالله ورسوله، فإن ذلك يذهب عنه**"[1].

فمن أيقن بما قدمناه أول الرسالة من مرتبة الشرع فزع إليه فوجد الشفاء من تلك الوسوسة، ومن لم يفزع إليه وحاول الاكتفاء بذلك الجواب، وهو أن ذلك السؤال لا يرد أصلاً جاءه الشيطان من طريق أخرى فقال: إن كان هذا الذي تقوله أنه الموجد الحقيقي أو أنه واجب الوجود شبيهاً بهذه المحسوسات فحكمه حكمها، وإلا فماذا عساه أن يكون؟ فإذا دفع ذلك بنفي تلك الذات المقدسة بحجة أنه لم يرها، ولا رأى ما تكون من جنسه، وما كان هكذا فلا سبيل إلى تصوره، فالأكمه لا يتصور الألوان حتى إنّه حتى لا يحلم في نومه بأنه أبصر شيئاً؛

(١) المسند (٢٦٢٠٣).

جاءه الشيطان من جهة أخرى فاستعرض ما يثبته العقل والشرع لله عز وجل فيعمد إلى أمر من ذلك فيقول: إن ثبت هذا لتلك الذات كانت شبيه بهذا المحسوسات فيلزم الافتقار.

فأما من وفقه الله عز وجل فإنه لا يعدم مَخلصاً، وأمّا المخذول فإنه يرى أنه مضطرٌّ إلى نفي الأمر، ثم يعمد الشيطان إلى أمر آخر فيقول: وهذا كالأول، وهكذا حتى يأتي على عامة تلك الأمور، ومنها لوازم الوجود فلا يبقى للإنسان إلا اعتقاد وجود يعتقد انتفاء لوازمه، وقد لا يكتفي الشيطان منه بهذا، بل يقول له: وكيف تعقل مثل هذا؟ وما تظنه حجة على الوجود قد جربت أمثاله في تلك الأمور، فليس هناك حجة، وإنما هي شبهات نسجتها الأوهام والأغراض في العصور المظلمة، فكن حُرّ الفكر، قويّ الإرادة، وخلّص نفسك من تلك القيود والأغلال، فإنك في عصر العلم!»[1].

قال الدكتور موسى شاهين: «فإن قيل: لم أمر الرسول ﷺ بالإمساك عن التفكير وبالاستعاذة دون الحجة الواضحة الموصلة لرفع الشبهة، والإجابة عن السؤال؟.

قلنا: أما بالنسبة لوسوسة الشيطان فإنه ليس لوسوسته انتهاء، بل كلما ألزم حجة زاغ إلى غيرها، ومهما عورض بالدليل وجد مسلكا آخر من المغالطة والاسترسال، فيضيع الوقت على المؤمن إن سلم من الفتنة والحيرة، نعوذ بالله من ذلك. فلا تدبير في دفعه أقوى من الالتجاء إلى الله تعالى بالاستعاذة به، كما قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وأما بالنسبة إلى المؤمن السائل فلنا عنه جوابان:

الأول: ما أشار إليه الطيبي، وهو أن العلم باستغناء الله جل وعلا عن الموجد أمر بديهي لا يقبل المناظرة، والاسترسال فيها لا يزيد البعض إلا حيرة.

(١) القائد إلى تصحيح العقائد» (ص١٣١).

وقال الكرماني: لما عرف بالضرورة أن الخالق غير المخلوق، أو بالكسب الذي يقارب الصدق كان السؤال عن ذلك تعنتا، ولا يجاب عن سؤال التعنت، وقال الحافظ ابن حجر: لما كان السؤال واهيا لم يستحق جوابا، أو الكف عن ذلك نظير الأمر بالكف عن الخوض في الذات والصفات.

الثاني: أن المؤمن السائل إما أن يكون من العوام، لا يستطيع هضم الدليل العقلي، ولا فهم الحجة والبرهان، وعلاجه في إيقافه عن التفكير وعدم الاسترسال معه فيما قد يدخله في تيه عميق، وفي رده إلى الله وقرآنه، والاستعاذة به من الشيطان الرجيم. وإما أن يكون ممن يستطيع الفهم والنظر والاستدلال، فهذا ينبغي أن يجاب بالحجة والبرهان.

وروايات الحديث أمرت صاحب الوسوسة بالانتهاء والاستعاذة، ولم تأمر المسئول برفض السؤال أو الإعراض عنه، وعدم الإجابة عليه، ولعل أبا هريرة رأى سائليه من النوع الأول، بدليل قوله "من الأعراب" فزجرهم عن البحث وأمرهم بالقيام عنه»[1].

تعليق:

نعود الآن بعد أن قرأنا ما كتبه شراح الحديث وما علق به جمع من الأئمة والعلماء على الحديث وما تضمنه من معنى، لننظر في حقيقة هذا السؤال الذي لم ولن يزال يسأله الناس، بعضهم يسأل مستفهما، وبعضهم يسأل متعنتا، وبعضهم يسأل مقررا لمقصد يريد الوصول إليه ألا وهو إنكار وجود الخالق، وذلك استدلالا بنفس القضية العقلية الضرورية التي يستعملها المؤمن بوجود الخالق ألا وهي أنه لابد لكل حادث من محدث.

وهذا السؤال كما قال الأئمة يحمل فساده في ذاته، فإن ضرورة وجود محدث لكل حادث مبني على تقرير الحدوث، فالعالم من حولنا لما كان حادثا بعد عدم وذلك بدلالة الحس

(١) فتح المنعم شرح صحيح مسلم (١/ ٤٣٤).

والمشاهدة لأجزاء توجد بعد عدم وتعدم بعد وجود، فهذه الحادثات الذتي ثبت حدوثها ضرورة هي التي تدخل تحت اليقينية الضريرة المذكورة ألا وهي "لابد لكل حادث من حدث" أما الخالق فإن السؤال لا يتأتى في حقه إلا بإثبات حدوثه بعد عدم وهذا ما لايمكن لأحد أن يقوله أو يبرهن عليه لأنه لم يره ولم يسمعه ولم يخبر هو عن نفسه بذلك، أي الحدوث. بل أخبر بضد ذلك في قوله تعالى: ﴿هُوَ الأوّلُ﴾ وقوله: ﴿لمْ يلِدْ ولم يُولَدْ﴾.

إذن فهذا السؤال إذا صدر من مؤمن بالله يستفهم فالتوجيه له ما ذكره النّبيّ ﷺ من الانتهاء.

وأما المتشكك والمنكر فيحتاج إلى شيء من التحليل لا جوابا للسؤال لأنّ ذلك كما قلنا ليس دواؤه إلاّ التسليم.

وإنما الغرض إثبات أن ما يقصده المتشكك والمنكر من التوسل بهذا السؤال إلى تقرير الإلحاد أن ذلك لا يسعفه ولا يخرجه من حيرة إلاّ إلى حيرة أشد منها.

* الاحتمالات ثلاثة

مما لا يتنازع فيه العقلاء أننا نشهد عالما محسوسا توجد أجزاؤه وتفنى في كل زمان ومكان، فإذا أردنا أن نصنف هذا العالم من حيث الخلق نجد الاحتمالات ثلاثة لا رابع لها:

الأوّل: أنّ هذا العالم لا خالق له، بل هو موجود أزلا لا محدث له، وهذا ممتنع ببدائه العقول.

ولن يقبل أحد – إلا مكابرة وعناداً – حركة يسيرة في جسم إلاّ بمحرك، ولا حادث إلاّ بمحدث، ولن يقبل أن يقال لما سرق منه إنه لا سارق، ولما أتلف له إنه تلف بذاته بدون متلِف، ولا أن يقال لمن ضُرب أو قتل إنه لا ضارب له ولا قاتل وإنما حدث القتل والضرب بلا

فاعل. هذا لا يقوله إلا مكابر ومعاند ومثل هذا يتوقف البحث معه عند هذه النقطة لزوما. فإذا بطل الاحتمال الأوّل فننظر في:

الاحتمال الثاني: أنّ هذا الكون مخلوق وهو الخالق لنفسه، وهذا أيضا ممتنع عقلا، لأنّه يفترض أن الكون موجود قبل أن يخلق، لأن الخالق لابد أن يكون موجودا قبل المخلوق، أي أنه في لحظة من لحظات الزمن لابد أن يكون الخالق موجودا والمخلوق معدوما، فإذا قلنا إن الكون خلق نفسه فهذا يعني القول بأنه كان موجودا وعدوما في الوقت نفسه وهذا لا يقبله عقل.

وإذا بطل هذا الاحتمال لم بق إلاً:

الاحتمال الثالث: وهو أنّ للكون خالقاً وهذا ما يسلم به العقل والحسّ.

ولأن العقول كلها متفقة على هذا الرأي برز لها السؤال: فمن خلق الله، ويعنون بذلك أننا إذا قلنا لابد لكل موجود من موجد فالخلق من أوجده، وهذا سؤال عبثي لا نتيجة له ولا فائدة إلا التوصل إلى إنكار الحقيقة الملموسة وهي وجود الكون وأن له خالقا.

والدليل على ذلك أن أي إجابة مفترضة لن تنهي السؤال: فلو قيل إن الخالق له خالق أوجده فسينسحب السؤال إلى خالق الخالق أيضا من خلقه، وهكذا في سلسلة لا تنتهي.

وإذا قيل إن الخالق لا خالق له ولا أول فسيستمر السؤال: فمن خلق الله.

وهذا ترى أن هذا السؤال لما كانت المسلمات العقلية وحدود الفكر البشري لا تصل إليه كان جوابه محصورا في التلقي والقبول فقط كما وجّه النّبيّ ﷺ بالكف عن التفكير فيه والإيمان والتسليم.

*** إيراد:**

يبقى أن يقول قائل: لماذا علي التسليم والقبول بوجود خالق لا أوّل لوجوده ؟ بينما لم نقبل وجود كون لا أول لوجوده ؟

نقول: لأنّ البراهين دلت على الأوّل وقطعت بنفي الثاني.

فالكون لا يمكن أن يكون أزليا لأننا نرى في كل لحظة فناء أجزائه وحدوثها.

أما الخالق تعالى فلم نر حدوثه ولا شيء منه فيبقى كونه لا أوّل له ليس في الحس ما ينفيه، وإذا كان الحس لا ينفي أوليته تعالى وأنه الأول لا خالق له ولا والد فإنّ البرهان العقلي والحسي والمنطقي يقرر هذا تقريرا بالغا، لأنّنا حين نظرنا في آيات الله تعالى الكونية وعرفنا أنّ للكون خالقا وربا أصبح السؤال هو البحث عن هذا الرب وكنهه وحقيقته، فعند ذلك جاءت الرسول ونزلت معهم الكتب تعرفنا كل شيء عن ربنا عن وجوده تعالى وأسمائه وصفاته ويثار وجوده وأفعاله، وأنزل مع هؤلاء الرسل معجزات مرتبطة بدليل وجوده الحسي ألا وهو الكون، فأرسل الرسل بمعجزاته الكونية التي لا يمكن أن تكون إلا بفعل خالق الكون نفسه ومدبّر ملكوته ونواميسه.

فهذا الرب الخالق الذي برهن للخلق عن صدق هؤلاء الرسل بهذه المعجزات قد أخبرنا عن طريقهم كل شيء عنه مما يمكن لعقولنا أن تستوعبه أو تحتاج ُليه وحجب عنا بطبيعة الحال كما سبق أن قلنا أمورا كثيرة رحمة بنا لمحدودية قدراتنا العقلية.

فالأمر أشبه بما لو أعطيت طفلا صغيرا أو أُمياً كتبا لفلسفات أو ابحاثاً في الفيزياء والكيمياء وأمرته أن يفهمها ويستوعبها بل هو أشد وأعظم لأن تلك في نهاية الأمر موجودة يمكن التوصل إليها بالعلم أو بتقدم السن أما الغيوب فالوصول إليها محال فيبقى التفكر للوصول إلى حقائقها محالا بل تعذيبا للعقل والنفس. ولهذا لم يأمرنا الله بها رحمة بنا وابتلاء،

ويشبه هذا طلب موسى أن ينظر إلى الله تعالى فأخبره أنه لا يستطيع وأراه كيف انهد الجبل لتجلي الرب تعالى.

ونحن لا نستطيع أن ننظر في الشمس ثواني معدودة وهي مجرد نجم صغير من ملكوت الله، وهكذا قدراتنا محدودة تعجز، فالصوت القوي يقتل الإنسان، والحرارة الشّديدة تحرقه، والبرودة كذلك، فكذلك العقل، أعطي من العلم ما يمكنه استيعابه وتوظيفه والإفادة منه وحجب عنه الكثير مما لا يحتمله لسبب أو آخر.

ومن ذلك الذي حجب عنه حقيقة وجود الرب تعالى، فأخبرنا فقط أنه تعالى الأوّل الذّي لم يزل، وأنه لم يلد ولم يولد، وابان لنا عن صدق خبره بما أرسل به رسله ومعجزاته وبراهين العقل والعلم التي ما زالت إلى اليوم تتكشف مصداقا لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] .

*** إيراد:**

من المهم هنا الإقرار أنه بالنظر إلى قوانين العقل المخلوق فإن كل تلك الاحتمالات متساوية في الإحالة العقلية، أعني خلق العالم بلا خالق أو قدم العالم أو قدم الخالق تعالى.

لكن البرهان الحسي الفطري والعقلي المستند إليهما يصحح الأخير وحده دون غيره، لماذا؟

لأنّ هذا الافتراض هو الوحيد الذي يفسر كل شيء في الوجود، إنك إذا تأملت في وجودك ووجود كل شيء من حولك، وتأملت اختلاف المخلوقات، وتنوع أجناسها وأنواعها وأحوالها في رزقها ومعاشها ومحياها ومماتها وعلاقاتها ببعض ومراتب الخلق وما بينها من التفاوت ومافيها من أنواع التسخير في أفرادها وأنواعها وأجناسها، وإذا تفكرت كذلك في الحكمة والغرض من كل ما يدور حولك من المحدثات والحوادث غرائبها وعجيبها ومتسقها ومتنافرها وانتظام أمر الكون كله بمختلف مكوناته الحية والجامدة، كل هذا لا يمكن أن

يفسّره ويفك شفرته إلا الاعتراف بوجود خالق للكون مدبر حكيم، وإذا اعترفت به وأقررت بأنه عليم وحكيم رحيم فلا مناص من قبول ما أرسل به رسله من الخبر عنه تعالى ومن ذلك ما قررته النصوص وخضعت له العقول وساعدته الفطرة أنّه سبحانه وتعالى الأوّل الذي لا أول له ولا شيء قبله وأنه تعالى الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد.

وآيات القرآن قررت هذه الحقائق بوضوح لمن كان له قلب وألقى السمع وأعدّ نفسه لقبول الحق فإنه لا يتردد في هذا.

يبقى أن القول بخالق لا أوّل لوجوده أمر محير للعقول، نقول نعم ورب الكعبة، وكيف لا يكون خالق الخلق محيرا للعقول مدهشا لها، وقد أرانا في مخلوقاته ما يدهش العقول ويثير الفضول ويحير العقل من إحكامه وإتقانه ورغم ما وصلت إليه البشرية من العلم إلا أنّها كلما ازدادت سبر أغوار الخلق كلما كشف لها العلم ماهو أكثر تحييراً وتحدياً للعقول أن تدرك كُنْهه وحقيقته حتى تصل إلى التسليم أنّها لا تعلم شيئاً، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] .

وهذا كله ونحن نتحدث عن شق الخلق فقط. أما إذا دخلنا في شقّ الأمر وتفكرنا في أفعاله وأوامره الشرعيه والقدرية فذلك بحر آخر لا ساحل له، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

وقال: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

* وممّا يدل على صحّة ما ذكرته قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخالقون أَمْ خَلَقُواْ السماوات والأرض بَل لاَّ يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥ - ٣٦].

ذكرت الآية غاية ما يمكن من فرضيات الخلق والإيجاد ارتكازا إلى الإنسان نفسه الّذي يشكك في الربوبية أو الألوهية، فهو:

إمّا أنّه خُلق من غير شيء.

وإمّا أنّه هو الخالق لنفسه.

وإمّا أنّه خلق السماوات والأرض أي الكون ومافيه.

وليس ثمّة احتمال رابع يمكن افتراضه، فكأن النص يشير إلى أنّ الذي تصحّ دعواه هو من قدم دليلاً على أنّه الرب، ألا وهو دليل الخَلْق: فالله خالق السماوات والأرض، فإذن هو الرب وهو وحده المستحق للعبودية. وإذا كان كذلك فمن الاعتراف بربوبيته تصديق خبره وامتثال أمره، وقد أخبرنا عن أزليته تعالى وأنّه لا أوّل له، فالواجب التسليم والإذعان للدليل والبرهان الضروري القاهر وهو خلق السماوات والأرض التي لا يستطيع أحد أن يزعمها لنفسه أو لغيره كما قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣]، وليس لمجرد القضية العقليّة البحتة.

والآية تتحدث عن المخلوق وتفسير موقفه، فالكلام عن الخلق أنهم خُلقوا من غير شيء هو الممتنع عقلا وحسا، أما وجود الله تعالى فليس عن خَلق أصلاً، فلا يدخل في الممتنع عقلاً ولا يدخل في الفرضيات، وإنما المقصود تذكير الإنسان بأنه مجرد مخلوق مربوب.

أما وجوده تعالى فهو سرّ لا تحيط به العقول، فالعقل خَلْق الله ولكل خلق حدّ ونهاية في قدراته وقدرة العقل في التصور: وقدرته على التصور محدودة كما سبقت الإشارة إلى هذا المعنى.

*** جواب رسول الله ﷺ على هذا السؤال هو خير الأجوبة، لماذا ؟**

سبق أن أشرنا أنّ أي جواب يفترض أن يجيب به مجيب عن هذا السؤال فإنّه لا يقطعه ولا يوقف صاحبه، بل سيولد من الجواب سؤالاً آخر.

أمّا جواب رسول الله ﷺ ففيه إشارة إلى قاعدة مهمة، وهو أنّ وجود خالق لهذا الكون متصف بكل خصائص الربوبية على وجه الكمال، من العلم والقدرة والحكمة والرحمة هو أمر قطعي الثبوت بناء على الدلائل الحسيّة والبراهين الماديّة التي تشير إلى ذلك بوضوح لكل عاقل.

فإذا كان العقل يحار في قضية مبدأ هذا الخالق ومن أوجده أو كيف وجد فإن هذه قضيّة تصورية تشكيكية بحتة لا تبطل اليقين الحاصل للإنسان بالمشاهدة والحس.

على سبيل المثال: إذا رأيت سارقا دخل بيتك ورأيته بكل وضوح أنت ومن معك يدخل ويأخذ المال ويخرج فإنّ هذا دليل حسي يقيني.

فلو فرض أن هذا السارق قدّم أوراقا تثبت أو شهودا آخرين يشهدون أنّه كان مسافرا ولم يصل إلى البلاد إلى بعد حدوث حادث السرقة فإنّ كل تلك الأدلة مهما بلغت لن تقاوم اليقين الذي حصل لك ومن معك ممن شاهدتم وسمعتم الرجل وهو يسرق.

لأنّ اليقين حين يحصل للإنسان فكل إيراد عليه لا يحصّل علماً ولا يقينا آخر يعارضه، وفي هذا قاعدة مهمة: **أنّ الضرورة إذا حصلت لا يبطلها النظر**، قال ابن تيمية: «جمهور الخلق على أن الله فوق العالم، وإن كان أحدهم لا يلفظ بلفظ " الجهة " فهم يعتقدون بقلوبهم ويقولون بألسنتهم أن ربهم فوق، ويقولون إن هذا أمر فطروا عليه وجبلوا عليه، كما قال الشيخ أبو جعفر الهمذاني لبعض من أخذ ينكر الاستواء ويقولون : "لو استوى على العرش لقامت به الحوادث"، فقال أبو جعفر ما معناه: إنّ الاستواء عُلِم بالسمع، ولو لم يرد به لم نعرفه، وأنت قد

تتأوّله، فدَعْنا من هذا وأخبرنا عن هذه الضّرورة التي نجدها في قلوبنا، فإنه ما قال عارف قطّ: "يا الله"، إلا وقَبْل أن ينطق بلسانه ، يجد في قلبه معنىً يطلب العلوّ لا يلتفت يمنةً ولا يسرةً، فهل عندك من حيلة في دفع هذه الضرورة عن قلوبنا؟ فلطم المتكلّم رأسه وقال: حيّرني الهمداني، حيّرني الهمداني، حيّرني الهمداني[1].

ومضمون كلامه أن دليلك على النّفي[2] لو صحّ فهو نظري، ونحن نجد عندنا علماً ضرورياً بهذا، فنحن مضطرون إلى هذا العِلْم وإلى هذا القصد، فهل عندك من حيلة في دفع هذا العلم الضّروري والقصد الضّروري الذي يلزمنا لزوماً لا يمكننا دفعه عن أنفسنا، ثم بعد ذلك قرر نقيضه.

وأما دفع الضروريات بالنظريات فغير ممكن، لأنّ النظريات غايتها أن يحتج عليها بمقدّمات ضرورية، فالضروريات أصل النظريات، فلو قدح في الضروريات بالنظريات لكان ذلك قدحاً في أصل النظريات، فتبطل الضروريات والنظريات، فيلزمنا بطلان قدحه على كل تقدير، إذ كان قدْحُ الفرع في أصله يقتضي فساده في نفسه، وإذا فسد بطل قدحُه، فيكون قدحه باطلاً على تقدير صحته وعلى تقدير فساده، فإنّ صحته مستلزمة لصحة أصله، فإذا صح كان أصله صحيحاً، وفساده لا يستلزم فساد أصله، إذ قد يكون الفساد منه، ولو قدح في أصله للزم فساده، وإذا كان فاسدا لم يقبل قدحه، فلا يقبل قدحه بحال.

(١) وهو أبو المعالي الجويني الذي يلقبه أتباعه بإمام الحرمين، والقصة مشهورة.

(٢) يعني نفي علوّ الله تعالى وأنّه تعالى في جهة العلوّ.

وهذا لأنّ الدليل النظري الموقوف على مقدمات وعلى تأليفها قد يكون فساده من فساد هذه المقدمة، ومن فساد الأخرى، ومن فساد النظم، فلا يلزم إذا كان باطلاً أن يبطل كل واحد من المقدمات، بخلاف المقدمات، فإنه متى كان واحد منها باطلاً بطل الدليل»[1].

وقال كذلك في سياق آخر مهم لكل من تأمّله من طلبة العلم وذلك لأهميته في باب التعامل مع الأسئلة والجدليات في باب العلم الإلهي وغيره: «قال الرازي: **"واعلم أنه لو ثبت كون هذه المقدمة بديهية، لم يكن الخوض في ذكر الدلائل جائزًا، لأن على تقدير أن يكون الأمر على ما قالوه، كان الشروع في الاستدلال على كون الله تعالى غير حال في العالم ولا مباين عنه بالجهة إبطالًا للضروريات، والقدح في الضروريات بالنظريات يقتضي القدح في الأصل بالفرع، وذلك يوجب تطرق الطعن إلى الأصل والفرع معًا، وهو باطل، بل يجب علينا بيان أن هذه المقدمة ليست من المقدمات البديهية، حتى يزول هذا الإشكال"**[2].

قلت: ما ذكره على التقدير حق، كما ذكره، ولهذا يوجد عامة أهل الفِطَر الصحيحة، ممن عرف هذا وأمثاله من العلوم البديهية والضرورية والفطرية، إذا سمع كلام المتكلِّمين وجدال المجادلين، الدّاعين للنظر والاستدلال، في دفع هذه الضرورة، لم يلتفتوا إلى كلامهم، بل هم أحد رجلين:

إما رجلٌ عارف بحلّ شبههم وبيان تناقضها.

وإمّا رجل معرض عن ذلك:

إما لعجزه عن حَلِّه.

وإمَّا لاشتغاله بما هو أهم عنده من ذلك.

---

(١) منهاج السنة (٢/ ٦٤٢).

(٢) أساس التقديس (ص١٥).

وإمَّا حسمًا لمادة الخوض في مثل كلامهم الباطل، وهذه طريقة أهل العلم والإيمان، فيمن يجادل بالباطل، المخالف للفطرة والشرعة، وهذا هو الصواب، دون ما عليه مخالفوهم، من أنهم يخالفون الفطرة والكتاب، بأنواع من الحجج المدَّعاة، ثم يزعمون أنها قواطع مخالفة للشرع، وأنها أصل الشرع فالقدح فيها قدح في الشرع، فإنّ هؤلاء بدّلوا الأمر وقلبوه، بخلاف من قرّر العلوم الفطرية البديهية، والعلوم السمعية الشرعية، وما وافق ذلك، دون ما خالف ذلك من الحجج القياسية.

وإذا كان هؤلاء قد سلكوا السبيل الحق، كما ذكره[1] على ذلك التقدير، لمن يكره ما ذكره، دافعًا لهم، لا دافعًا للناظر في نفسه، ولا للمناظر مع غيره، فقوله: **"يجب علينا أن نبين أن هذه المقدمة، ليست من المقدمات البديهيات حتى يزول الإشكال"** ليس بقول سديد، ولا ينفعه ولاينفع غيره، سواء كان ناظِرًا أو مُناظرًا، لأنّ الناظر الذي بَدَه قلبه العلم بهذه المقدمة، واضطرّ إلى الإقرار بها، وقد فُطر عليها، كيف يزول ذلك عنه بالنظر والجدل، وهو قد سلّم أنّ القدح في الضروريات بالنظريات لا يجوز.

قال الحافظ أبو منصور بن الوليد البغدادي في رسالته التي كتبها إلى الفقيه محمود الزنجاني أن أبا محمد الحافظ الحراني يعني: عبد القادر الرهاوي أنا الحافظ أبو العلاء يعني: الهَمْداني أنا أبو جعفر الحافظ[2] سمعت أبا المعالي الجويني، وقد سئل عن قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] وقال: كان الله ولا عرش، وجعل يتخبط في الكلام، فقلت: يا هذا قد علِمنا ما أشرتَ إليه، فهل عندك للضرورات من حيلة، فقال: ما تريد بهذا القول؟ وما تعني بهذه الإشارة؟

---

(١) أي الرازي في كلامه الذي ساقه.

(٢) أبوجعفر الهمذاني محمد بن أبي علي الحسن بن محمد الحافظ الصدوق.

فقلت: ما قال عارفٌ قطّ: يا رباه، إلاّ قبل أن يتحرّك لسانه، قام من باطنه قصْد لا يلتفت يمنة ولا يسرة، يقصد الفوق، فهل لهذا القصد الضروري عندك من حيلة؟ فبيِّنْه لنا لنتخلص من الفوق، وبكيتُ وبكى الخلق، فضرب بكمّه على السرير، وصاح بالحيرة، وخرق ما كان عليه، وانخلع، وصارت قيامة في المسجد، وترك ولم يُجِبْني إلا بـ"يا حبيبي الحيرة، والدهشة الدهشة" وسمعت بعد ذلك أصحابه يقولون: سمعناه يقول: حيّرني الهمداني.

ولهذا روى عنه أبو الفتح محمد بن علي الطبري الفقيه قال: دخلت على الإمام أبي المعالي الجويني الفقيه، نعوده في مرضه الذي مات فيه بنيسابور، فأُقْعِد، فقال لنا: "اشهدوا عَليّ أني قد رجعت عن كل مقالة قلتها أخالف فيها ما قال السلف الصالح، وإني أَموت على ما يموت عليه عجائز نيسابور"[1] رواها عنه الحسن بن العباس الرستمي الأصبهاني مفتي أصبهان ومحدثهم، قال حدثنا أبو الفتح فذكرها كما ذكرها ابن الوليد.

فلما تكلم أبو المعالي على منبره، في نفي علوّ الله على العرش، بأن الله كان قبل العرش، ولم يتجدد له بالعرش حال، قام إليه هذا الشيخ أبوجعفر الهمداني الحافظ، فقال: قد علمنا ما أشرت إليه، أي: دعنا من ذكر العرش، فإن العلم بذلك سمعيٌّ عقليّ، ودعنا من معارضة ذلك بهذه الحجج القياسية، فهل عندك للضرورات من حيلة، أي: كيف تصنع بهذه الضرورة الموجودة في قلوبنا؟ ما قال عارف قط: يا رباه إلا قبل أن يتحرك لسانه، قام من باطنه قصد لا يلتفت يمنة ولا يسرة، يقصد الفوق، فهل لهذا القصد الضروري عندك من حيلة، فبينها نتخلص من الفوق والتحت، قال: فصاح أبو المعالي وضرب على السرير، وخرق ما كان عليه، ولم يجبه إلا بقوله: "الحيرة الحيرة، الدهشة الدهشة" وكان يقول: "حيّرني الهمداني".

(١) طبقات السبكي: (٥/ ١٩١).

وذلك لأنّ العلم باستواء الله على العرش بعد خلق السموات والأرض، إنما علم بالسمع، أمَّا العلم بعلوّ الله على العالم فهو معلوم بالفِطَر الضرورية، وعند الاضطرار في الحاجات لا يقصد القلب إلا ما يعلم كما يعلم، فقال لأبي المعالي: **ما تذكره من الحجج النظرية، لا تندفع به هذه الضرورة، التي هي ضرورة في القصد، المستلزم للضرورة في العلم**، فعلم أبو المعالي أن هذه معارضة صحيحة، فقال: "حيّرني الهمداني"، لأنه عارض ما ذكره من النظر، بما بيّنه من الضرورة، فصرخ حائرًا، لتعارض العلم الضروري والنظري.

ولأنّ هذه الضرورة الموجودة في القلوب علمًا وقصدًا، ولا يمكن أحدٌ نزعها إلا بإحالة الفِطَر، كما قال النبي ﷺ: "**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟**"(١).

وأما المناظِر، فإذا قال لمنازعه هذا، إنّ ما علمه بالضرورة والبديهة، أو هذه المقدمة بديهية أو ضرورية عندي، لم يكن له أن يناظره ببيان ما ينافي الأمر الضروري، كما ذكره، فإنّ غايته في ذلك أن يستدل بمقدمات، يسندها إلى مقدمات ضرورية، فلو قُدّر أنّ البديهيات تتعارض، أو تعارضت عند شخص لم يكن دفعها هذا البديهي، لهذا البديهي، بأولى من العكس، فكيف إذا كان المعارض لها أمورًا نظرية، مستندة إلى بديهية؟ فلا ينقطع المناظر بمثل هذا، فلا ينتفع به الرادّ عليه، ولاينتفع به الناظِر كما تقدم.

ولكن إذا ادعى شخص في مقدّمة أنها فطرية، فإمّا أن يعتقد كذبه أو يعتقد صدقه، فإن اعتقد أنه كاذب، عومل بما يعامل به مثله من الكذابين الجاحدين، على ما وردت به الشريعة، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، وعامة الكفار من هذا النوع.

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٨) ومسلم (٢٦٨٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وإن اعتقد أنه صادق فيما يخبر به عن نفسه، ولكنه مخطئ، لاشتباه معنىً عليه بمعنى آخر، أواشتباه لفظٍ بلفظ، أو غير ذلك، أو لخلل وقَع في إدراك حسِّه وعقله، أو لنوع هوىً خالط اعتقاده، فهذا طريقُه أن يبيّن له ما يزيل الاشتباه، حتى يتميّز له أنّ الذي اضطر إليه من العلم ليس هو الذي نُوزع فيه، بل هو غيره، أو يصلَح إدراكُه بإزالة الهوى أوالاعتقاد الفاسد، الذي جعله يظنّ ما ليس بضروريٍّ ضروريًّا»[1].

وهذه قاعدة عظيمة مهمة في كل المعارف وهي **أنّ العلم الضروري إذا حصل بأيّ طريق وبأيّ برهان فإنّ النظر العقلي حينها مهما بلغ قوّةً في نظر صاحبه فهو لاشيء ولا قيمة له تاسيساً ولا تفريعاً**، ومنه ما نحن في صدده من النظر العقلي في مسألة وجود الخالق تعالى وأنّه لا أوّل له.

وشرح ذلك أنّ السائل لهذا السؤال إما أنّه يريد التوصل إلى تجويز وإمكان أنّ العالم قديما لا خالق له ولا محدِث، كما جوّزنا أن يكون الخالق لا أوّل له ولا موجد، أو بعبارة أخرى: من حقنا التصديق بأنّه لا أوّل للعالم فهو قديم، كما صدّقتم أنه لا أول للخالق وقلتم بقدمه.

وهذا الزّعم والقياس بين القضيتين باطل كل البطلان لسبب بيّن وواضح: ألا وهو أنّا شهدنا بحواسّنا حدوث أجزاء العالم وفناءها في كل وقت منذ الأزل وحتى الآن.. أمّا الخالق فلم يشهد أحد بذلك رؤيةً ولا خبراً ولا استدلالاً ولا يمكنه أبداً، لأنّ البرهان العقلي يستند أساساً إلى التصوّر، والتصوّر لا يمكن أن لا يكون له مبدأ حسيّ أو معنى لغوي، والخالق الذي لم يره أحد ولا يعلم كنهه أحد لا يمكن أن يحيط به أحد .

(١) بيان تلبيس الجهمية (١/٤٨).

فيبقى الشأن فيه أن يخبرنا أحد عنه، وقد أخبرنا هو عن نفسه على ألسنة رسله وفي كتبه أنّه لا أوّل له ولا مبدأ ولا محدث تعالى الله عن ذلك، ومن أصدق من الله حديثا ومن أصدق منه قيلا.

والحال الأخرى أنّ السائل لهذا السؤال يقصد تجويز التسلسل في الخالقين: وهذا لم يقل به أحد من العقلاء فهي ساقطة باتفاق الأمم.

ولو تأمّل المتأمّل لوجد أنّ كلا الأمرين – أعني التسلسل و قدم العالم– يتعارض مع اليقين الحاصل بوجود الخالق.

ثم إنّ وجود الخالق على الصفات التي تقررت به بصريح العقل من القدرة والعلم والحكمة يبطل أيّ قول بأن له خالقا أو أصلا من ولادة وغيره. تعالى الله عن ذلك.

*** وجه آخر:**

والنبي ﷺ عند ذكره لهذا السؤال وإصرار الناس على طرحه لم يرشد إلى قضية العقل وجواب السؤال بها، بل أمر بالكف والاستعاذة، وذلك لأنّ القضية المسلم بها **"أنه لابد من قطع التسلسل بخالق لا خالق له"** قضيّة عقلية مُسَلّمة بين المتواطئين عليها، حتى وإن كانت من حيث النظر العقلي في نفس وزن التسلسل في الموجِدين أو الخالِقين. وهذا يعني أن هذا السؤال لا جواب له من حيث البرهان العقلي وإنما جوابه الحس.

وهذا خلاف ما قاله ابن الجوزي وابن هبيرة وسبق أن نقلناه.

لأنّ الحس دلنا على المحدِث الخالق تعالى، وأبان لنا عن قدرته وحكمته، ومن هذا تنطلق براهين كل شيء، ومنه تؤخذ يقينيات وضروريات متفق عليها بين كل العقلاء.

فإذا أخبرَنا هذا الخالق أنه لم يلد ولم يولد، وأنه هو الخالق لكلّ شيء ولا أوّل له، صدّقنا خبره بما قام على صدقه من شواهد ربوبيته.

ومن برهان صدق هذه المقدمة الخبرية الحسية العقليّة كما سبق أن ذكرنا أنها هي التي تفسر كل شيء في الوجود، أما التسلسل أو النفي فكلاهما يؤدي إلى حيرة وغموض كل شيء.

والنبيّ ﷺ يشير إلى أنّ هذا السؤال أكثر وروده على النفوس الفارغة من الاشتغال بالنافع أو المريضة بالشهوة، لا أنّ ذلك من نظر عقلي فإنّ التفكر والنظر العقلي في هذه الغيبيات لا يوصل إلى شيء، قال ابن تيمية كذلك: « رأيت بخط القاضي أبي العباس أحمد بن محمد بن خلف المقدسي حكاية مضمونها أن الشيخ أحمد الخيوقي المعروف بالكبرى أخبره انه دخل عليه إمامان من أئمة الكلام، أحدهما: أبو عبد الله الرازي، والآخر من شيوخ المعتزلة الذين بتلك البلاد، بلاد جرجان وخوارزم قال: فقالا لي: يا شيخ بلَغَنا أنك تعلم علم اليقين؟ فقلت لهما: نعم، فقالا: كيف تعلم علم اليقين ونحن نتناظر من وقت كذا إلى كذا كلّما أقام دليلاً أظنّه قال على صحة الإسلام أفسدتُه، وكلما أقمتُ دليلاً أفسَدَه، وقمنا ولم يقدر أحدٌ منا أن يقيم دليلاً على الآخر، فقال: فقلت: ماأدري ماتقولان، أنا أعلم علم اليقين، فقالا: فَصِفْ لنا علم اليقين، قال: فقلت: هو واردات تَرِدُ على النفوس تعجز النفوس عن ردّها، وهذا الجواب مناسب لما يعلمانه من حدّ العلم الضّروري، فإن العلم الضروري هو الذي يلزم نفس المخلوق لزومًا لايمكنه الانفكاك عنه، فبيّن أنّ اليقين الذي يحصل لنا أمر نضطرّ إليه يَرِدُ على قلوبنا لا نقدر على دفعه، قال: فقالا له: كيف الطريق إلى هذه الواردات؟ **فدلّهما على طريقة، وهي الإعراض عن الشواغل الدنيوية، والإقبال على ما يؤمر به من العبادات والزّهد**، قال: فقال الرازي: أنا لايمكنني هذا فإنّ لي تعلّقات كثيرة [1]، وأمّا المعتزلي فقال: أنا محتاج إلى هذه الواردات فقد أحرقت الشبهات قلبي، فأمره الشيخ بما يعمله من الذِّكر والخلوة فتعبّد مدّة فلما خرج من الخلوة قال: ياسيدي والله ما الحقّ إلا فيما يقوله هؤلاء المشبّهة، هذا معنى الحكاية أو

(١) وهذا من حيل الشيطان، وإلاّ فأيّ تعلّق وشغل أهم من علاج مرض الشك والحيرة في الله ؟

نحو ذلك، وذلك أنّ المعتزلة يسمون من أثبت الصفات مشبهًا، وكان يعتقد النّفي لا يرى أنّ الخالق يتوجّه إليه القلب إلى جهة فوق ولا نحو ذلك، **فلما خلا قلبه من تلك العقائد والأهواء التي هي الظنّ وماتهوى النفس حصل له بالفطرة علومٌ ضرورية توافق قول المثبتة»**[1].

وهذا بالضبط هو مقتضى العلاج النبوي الناجع، فمن وردت عليه تلك الواردات فليبتعد عن الجدل والنظر في الدلائل العقلية وليخلُ بربّه ونفسه وكتابه حتى تبدأ النفس تصفوا وينجلي عن قلبه الران الذي يغطيه من فسلفات أو شبهات أو شهوات، فحينئذ يرى الحق بنور الضرورة والفطرة التي خلق الله الخلق عليها، وإذا ثبتت فلا يزيلها إلاّ الله تعالى.

*** اغترار بعضهم بطوائف من العلماء والعقلاء الذين ينكرون وجود الله:**

مما يغر السفهاء اجتماع طوائف كثيرة على إنكار وجود الخالق ويرى أن إطباق هؤلاء الأمم أو الطوائف وكثير منهم مثقفون وعلماء ونخب على هذا الأمر لا يكون إلا لأنّه حق، ولو كان أمر الإله حقاً ما اجتمعت كلمة هؤلاء على إنكاره وجحده، وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وإذا قالوا: العلوم الضرورية لا يجتمع على جحدها طائفة من العقلاء الذين لا يجوز عليهم التواطؤ على الكذب.

قيل لهم: لا جرم هذا القول لم يتفق عليه طائفة من العقلاء من غير تواطئ، بل جماهير العقلاء من الأولين والآخرين ينكرونه غاية الإنكار، وإنما تقوله طائفة واحدة بعضهم عن بعض ، على سبيل مواطأة بعضهم لبعض، وتلقي بعضهم عن بعض، ومع المواطأة تجوز المواطأة على تعمد الكذب وعلى الأمور المشتبهة كالمذاهب الباطلة التي يعلم فسادها بالضرورة، وقد توارثها طائفة تلقاها بعضهم عن بعض، بخلاف الأقوال التي يقر بها الناس عن غير مواطأة، فتلك لا يكون منها ما يعلم فساده ببديهة العقل. ولهذا كان في عامة أقوال

(١) بيان تلبيس الجهميّة (٢/ ١٨٣).

الكفار وأهل البدع من المشركين والنصارى والرافضة والجهمية وغيرهم ما يعلم فساده بضرورة العقل، ولكن قاله طائفة تلقاه بعضهم عن بعض»[1].

وقال: «بل التحقيق أنّ العقلاء لايتفقون على إنكار العلوم الضرورية من غير تواطؤ واتفاق، كما لا يتفقون على الكذب من غير تواطؤ ولا اتفاق، وذلك أنّ الله تعالى خلق الإنسان يعلم الأمور الضرورية بغير اختياره، كما قد يجهل بعضها، وخلقه بفطرته يخبر بما يعلمه، إلاّ لعارض يغيّره عن فطرته، وكذلك خلقه بفطرته يريد العَدل والمصلحة إلاّ لِعَارِض، فهو وإن كان ظلومًا جهولاً فذاك في كثير من الأمور، أمّا أن تكون أمّة من الأمم تجهل كل شيء أو تكذب في كل شيء أو تظلم في كل شيء فهذا لا يتفق أبدًا، فإنّ اجتماع بني آدم في الدنيا وهو الاجتماع الفطري الطبيعي الذي لايعيشون بدونه لايتصوّر مع هذا الإنكار، وذلك أنهم لا بد أن يقرّوا بأنّ لأحدهم أبًا وأمًّا وأخًا ونحو ذلك»[2].

* العدم غير موجود في الحس وكذلك في المعنى:

قال العلامة ابن الوزير في كتابه الماتع "إيثار الحق على الخلق": «من أنفع ما يدفع الحيرة به أنه لابدّ من لزوم المحارة[3] في العقول على كل تقدير، والاسلام أقلّ المحارات من جميع الملل الكفرية، وبالاسلام تندفع كلّها وتخرج العقول من الظلمات إلى النور

وانظر إلى هذا العالم المحسوس بالضّرورة تجد المحارة العقلية لازمة لوجوده، لأنّه لا يخلو بالضرورة من الحدوث أو القدم، فالقدم من محارات العقول، والحدوث من غير محدث من

(١) منهاج السنة (١/ ٣٢٥).

(٢) بيان تلبيس الجهميّة (٢/ ٣٣٣).

(٣) يعني الأمر المحيّر للعقل.

محاراتها، بل من محالاتها، فالمحارات أقرب من المحالات، لأنّ الممكن البعيد أقرب من الممتنع، ولا ثالث لهذين الأمرين إلاّ الاسلام وإلى هذا أشار من قال:

صورة الكون محال ... وهي حقّ في الحقيقة

لكنه أخطأ في تسمية المحارة محالاً، فإن كانت المحارة لازمة للإسلام فهي لما عداه ألزم، فإن كان هذا اللزوم حقاً فالمحارة حقّ، والحق لا يُستَوحش منه، وإن كان باطلاً فالباطل حقيق لا يُستوحش من خشيته لأنّه لا شيء حقيقة، فكيف الخوف من لا شيء.

فمن لم يُثبت الربَّ قديماً أثبت العالم قديماً، ومن لم يثبت له أسماءه الحسنى بلا سبب أثبت الإحكام العجيب للعالم بلا سبب، ومن لم يثبت الربَّ بكماله بلا سبب أثبت العالم بإحكامه وعجائبه بلا سبب، ومن لم يقبل الايمان بالبرهان والقرآن، قبل الكُفْر بلا قرآن ولا برهان.

وإلى هذا أشار رسول الله ﷺ حيث قال: "**لا يزال الناس يتساءلون حتى يقولوا هذا الله خلق الخلق فمن خلق الله**" وأمرنا بالاستعاذة والانتهاء حينئذ، لأنّه يُقال للكافر: فإذا أمكن وجودُ العالم بغير خالق؛ فأوْلى منه وجود الربّ بغير خالق، ودلّ على أنّه لابد من انتهاء الموجودات الممكنة إلى واجب الوجود عزّ وجل.

واعلم أن مادة هذه الوساوس عجب الانسان بعقله وعلمه، وظنّه أنّه إذا لم يعرف شيئاً فهو باطل، فاعرف أنك كما قال أصدق القائلين في صفة الانسان: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] ويدلّ على هذا من المعقول مع المنقول أمران، **أحدهما**: أنّ الانسان يؤثر هواه في الاقبال على دار الفناء وعلى شهواتها الضارّة المضرّة في العاجلة المشاهدة، ويقدّم المرجوح على الراجح قطعاً، ويتحمّل من الأمانات التي هو في تحمّلها مختار ما يدلّ على صحة ما روي من تحمّل آدم عليه السلام لأصلها وجميعها، مثل الدّخول في الدّيون والضمانات والحقوق الزوجية وغيرها، وحقوق المخالطة، والفرق بين الأحكام عند الرضا والغضب، والغنى

والفقر، والامان والخوف، وبذلك يعرف الفَطين من طبع نفسه الظّلم وجحد الحقّ عند رجحان الدّاعي إلى ذلك، ولذلك يوجد البخل من بعض الأجواد في الأحوال، والكذب من بعض الصّادقين كذلك، قال صالح عليه السلام: ﴿يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩] فبيّن أن الصارف لهم الهوى المحض لا الشبهة.

ومن هنا نقم الله على الكفار أنّهم آمنوا بالباطل، فلو كان كُفْرهم بالحقّ الّذي هو الله وكتبه ورسله من أجل الشبهة لكانوا لعبادة الحجارة وغيرها أشدّ كفراً، وذلك بيّنٌ في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢]، ونحوها قوله في قصة الخليل عليه السلام: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠-٨١] فبيّن الخليل لهم أنّ خوفهم وتخويفهم من أصنامهم واعتذارهم به عن الإيمان شيء باطل، ولو كان من قبيل خوف العقلاء المستند إلى الأمارات الصحيحة أو الأدلّة الواضحة لكان خوفهم من الله تعالى أولى من كل وجه صحيح»[1].

وهذا من أنفس ما يمكن أن تقرأ من الحوار العقلي، وهذا يعني أنّه لا يوجد عدم اعتقاد، بل عدم الاعتقاد هو في حقيقته اعتقادٌ بالعَدم، ولهذا ما مِن أحد ينكر الحقّ الذي لا يحتمله عقله إلاّ قبل محالاً مثله أو أشدّ منه، فالملحد الذي ينكر وجود الخالق بناء على مثل هذا السؤال الفلسفي السوفسطائي سيعتقد ويصدق ويقبل محالات أكبر وأكثر تعقيداً، كما أنّه سيفقد

(١) إيثار الحق على الخلق (ص٦١).

التصوّر والإجابات والتفسيرات لكل فسيفساء الكون وحوادث التاريخ ومجريات الأيام وسيدخل في تيه وعماية لا حدود لها وينتهي به المطاف إلى الانتحار الحقيقي بقتل نفسه، أو الانتحار المعنوي حين يفقد قيمة الإنسان، وذلك عندما يعجز عقله أن يفسّر القوانين الأخلاقية التي تميزه عن الحيوان ويعارضه ملحد مثله في مصداقية وأحقية القيم والمثل التي تميز الإنسان عن الحيوان والجماد، فهو لا يؤمن بمرجعية خالق، لأنه ينكره أصلاً، فتصبح القيم مجرد قناعات شخصية، ففي حين يرى القتل جريمةً يراها آخر متعة من حق القوي ممارستها مع الضعيف، فما هو القانون الذي يسود ؟ أهو قانون الأغلبية ؟ فماذا إذا كانت الأغلبية مقتنعة بهذا، بل ماذا يكون الحال إذا انهارت المجتمعات كما في أوقات الحروب إذ تسود قوانين الفرد أو الحزب الذي يستحل كل شيء دون قانون ولا مرجعية، ويصبح الحق رهنا بما عليه القوي، والباطل ما خالف هذا القوي، كما قال الله وحكى عن فرعون: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩] فالرشاد هو ما يقرره الفرعون القوي، وقال عن موسى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

ولا شك أن أحدا من العقلاء لا يمكن أن يقبل هذا، بل كثير منهم يدّعي أن سبب إلحاده سخطه على الإله الظالم في تصوّره كما تقدّمه الأديان، فإذا هو بإلحاده يقرر ظلم الفرد والطاغوت بما أضفى عليه من الحصانة والأمن من الملاحقة في الآخرة، وهذا يدل على أنّ قضية الإلحاد وإنكار الحق في أسّها وأساسها: شهوةٌ ولا شبهة.

ولعلي وقد وصلت إلى هذه النقطة أختم بحوار شيق ذكره الشيخ محمد الغزالي رحمه الله في كتابه "قذائف الحق" بينه وبين أحد الملحدين المنكرين وجود الخالق تبين لك حقيقة الإلحاد وأنه موقف نفسي لا قناعة عقلية، قال رحمه الله: «دار بيني وبين أحد الملاحدة جدال طويل،

ملكت فيه نفسي وأطلت صبري حتى ألقف آخر ما في جعبته من إفك، وأدمغ بالحجة الساطعة ما يوردون من شبهات..

قال: إذا كان الله قد خلق العالم فمن خلق الله؟

قلت له: كأنك بهذا السؤال أو بهذا الاعتراض تؤكد أنه لا بد لكل شيء من خالق!

قال: لا تلقني فى متاهات، أجب عن سؤالي.

قلت له: لا لف ولا دوران، إنك ترى أن العالم ليس له خالق، أي أن وجوده من ذاته دون حاجة إلى موجد، فلماذا تقبل القول بأن هذا العالم موجود من ذاته أزلاً وتستغرب من أهل الدين أن يقولوا: إن الله الذى خلق العالم ليس لوجوده أول؟

إنها قضية واحدة، فلماذا تصدق نفسك حين تقررها وتكذب غيرك حين يقررها، وإذا كنت ترى أن إلهاً ليس له خالق خرافة، فعالم ليس له خالق خرافة كذلك، وفق المنطق الذي تسير عليه..!

قال: إننا نعيش فى هذا العالم ونحس بوجوده فلا نستطيع أن ننكره!

قلت له: ومَن طالبك بإنكار وجود العالم؟

إننا عندما نركب عربة أو باخرة أو طائرة تنطلق بنا فى طريق رهيب، فتساؤلنا ليس فى وجود العربة، وإنما هو: هل تسير وحدها أم يسيرها قائد بصير!

ومن ثم فإنني أعود إلى سؤالك الأول لأقول لك: إنه مردود عليك، فأنا وأنت معترفان بوجود قائم، لا مجال لإنكاره، تزعم أنه لا أول له بالنسبة إلى المادة، وأرى أنه لا أول لها بالنسبة إلى خالقها.

فإذا أردت أن تسخر من وجود لا أول له، فاسخر من نفسك قبل أن تسخر من المتدينين..

قال: تعني أن الافتراض العقلي واحد بالنسبة إلى الفريقين؟

قلت: إنني أسترسل معك لأكشف الفراغ والادعاء الذين يعتمد عليهما الإلحاد وحسب، أما الافتراض العقلي فليس سواء بين المؤمنين والكافرين..

إنني – أنا وأنت – ننظر إلى قصر قائم، فأرى بعد نظرة خبيرة أن مهندساً أقامه، وترى أنت أن خشبه وحديده وحجره وطلاءه قد انتظمت في مواضعها وتهيأت لساكنيها من تلقاء أنفسها..

الفارق بين نظرتينا إلى الأمور أنني وجدت قمراً صناعياً يدور فى الفضاء، فقلت أنت: "انطلق وحده دونما إشراف أو توجيه" وقلت أنا: بل أطلقه عقل مشرف مدبر..

إن الافتراض العقلي ليس سواء، إنه بالنسبة إليّ الحقّ الذى لا محيص عنه، وبالنسبة إليك الباطل الذي لا شك فيه، وإن كل كفار عصرنا مهرةٌ فى شتمنا نحن المؤمنين ورمينا بكل نقيصة فى الوقت الذى يصفون أنفسهم فيه بالذكاء والتقدم والعبقرية..

إننا نعيش فوق أرض مفروشة، وتحت سماء مبنية، ونملك عقلاً نستطيع به البحث والحكم، وبهذا العقل ننظر ونستنتج ونناقش ونعتقد.

وبهذا العقل نرفض التقليد الغبيّ كما نرفض الدعاوى الفارغة، وإذا كان الناس يهزءون بالرجعيين عبيد الماضي ويتندرون بتحجّرهم الفكرى، فلا عليهم أن يهزءوا كذلك بمن يميتون العقل باسم العقل، ويدوسون منطق العلم باسم العلم، وهم للأسف جمهرة الملاحدة..! لكننا نحن المسلمين نبني إيماننا بالله على اليقظة العقلية والحركة الذهنية، ونستقرئ آيات الوجود الأعلى من جولان الفكر الإنساني فى نواحى الكون كله.

فى صفحة واحدة من سورة واحدة من سور القرآن الكريم وجدت تنويهاً بوظيفة العقل اتخذ ثلاث صور متتابعة فى سلم الصعود، هذه السورة هى سورة الزمر، وأول صورة تطالعك

هي إعلاء شأن العلم والغض من أقدار الجاهلين: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

ثم تجيء الصورة الثانية لتبين أن المسلم ليس عبد فكرة ثابتة أو عادة حاكمة بل هو إنسان يزن ما يعرض عليه ويتخير الأوثق والأزكى ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٧-١٨].

ثم يطّرد ذكر أولى الألباب للمرة الثالثة فى ذات السياق على أنهم أهل النظر فى ملكوت الله الذين يدرسون قصة الحياة فى مجالاتها المختلفة لينتقلوا من المخلوق إلى الخالق ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٢١].

وظاهر من الصور الثلاث فى تلك الصفحة من الوحي الخاتم أن الإيمان المبتوت الصلة بالتقليد الأعمى أو النظر القاصر أو الفكر البليد.

إنه يلحظ إبداع الخالق فى الزروع والزهور والثمار، وكيف ينفلق الحمأ المسنون عن ألوان زاهية أو شاحبة توزعت على أوراق وأكمام حافلة بالروح والريحان، ثم كيف يحصد ذلك كله ليكون أكسية وأغذية للناس والحيوان، ثم كيف يعود الحطام والقمام مرة أخرى زرعاً جديد الجمال والمذاق تهتز به الحقول والحدائق، من صنع ذلك كله؟

قال صاحبي وكأنه سكران يهذي: الأرض صنعت ذلك!

قلت: الأرض أمرت السماء أن تهمي والشمس أن تشعّ وورق الشجر أن يختزن الكربون ويطرد الأوكسجين والحبوب أن تمتلئ بالدهن والسكر والعطر والنشا؟؟

قال: أقصد الطبيعة كلها فى الأرض والسماء!

قلت: إن طبق الأرز فى غذائك أو عشائك تعاونت الأرض والسماء وما بينهما على صنع كل حبة فيه، فما دور كل عنصر فى هذا الخلق؟ ومن المسؤول عن جعل التفاح حلواً والفلفل حرّيفاً أهو تراب الأرض أم ماء السماء؟

قال: لا أعرف ولا قيمة لهذه المعرفة!

قلت: ألا تعرف أن ذلك يحتاج إلى عقل مدبر ومشيئة تصنف؟

فأين ترى العقل الذي أنشأ والإرادة التى نوعت فى أكوام السباخ أو في حزم الأشعة؟؟

قال: إن العالم وجد وتطور على سنة النشوء والارتقاء ولا نعرف الأصل ولا التفاصيل!

قلت له: أشرح لكم ما تقولون! تقولون: إنه كان فى قديم الزمان وسالف العصر والأوان مجموعة من العناصر العمياء، تضطرب فى أجواز الفضاء، ثم مع طول المدة وكثرة التلاقي سنحت فرصة فريدة لن تتكرر أبد الدهر، فنشأت الخلية الحية فى شكلها البدائي ثم شرعت تتكاثر وتنمو حتى بلغت ما نرى! هذا هو الجهل الذى أسميتموه علماً ولم تستحوا من مكابرة الدنيا به!

أعمال حسابية معقدة تقولون إنها حلت تلقائياً، وكائنات دقيقة وجليلة تزعمون أنها ظفرت بالحياة في فرصة سنَحت ولن تعود! وذلك كله فراراً من الإيمان بالله الكبير!

قال وهو ساخط: أفلو كان هناك إله كما تقول كانت الدنيا تحفل بهذه المآسي والآلام، ونرى ثراء يمرح فيه الأغبياء وضيقاً يحتبس فيه الأذكياء، وأطفالاً يمرضون ويموتون، ومشوهين يحيون منغصين.. قلت: لقد صدق فيكم ظني، إنّ إلحادكم يرجع إلى مشكلات نفسية واجتماعية أكثر مما يعود إلى قضايا عقلية مهمة!

ويوجد منذ عهد بعيد من يؤمنون ويكفرون وفق ما يصيبهم من عسر ويسر ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ [الحج: ١١] .

قال: لَسْنا أنانيين كما تصف نغضب لأنفسنا أو نرضى لأنفسنا، إننا نستعرض أحوال البشر كافة ثم نصدر حكمنا الذى ترفضه..

قلت: آفتكم أنكم لا تعرفون طبيعة هذه الحياة الدنيا ووظيفة البشر فيها، إنها معبر مؤقت إلى مستقر دائم، ولكي يجوز الإنسان هذا المعبر إلى إحدى خاتمتيه لا بد أن يُبتلى بما يصقل معدنه ويهذب طباعه، وهذا الابتلاء فنون شتى، وعندما ينجح المؤمنون فى التغلب على العقبات التى ملأت طريقهم وتبقى صلتهم بالله واضحة مهما ترادفت البأساء والضراء فإنهم يعودون إلى الله بعد تلك الرحلة الشاقة ليقول لهم: ﴿يَاعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨] .

قال: وما ضرورة هذا الابتلاء؟

قلت: إن المرء يسهر الليالى فى تحصيل العلم، ويتصبب جبينه عرقاً ليحصل على الراحة، وما يسند منصب كبير إلا لمن تمرس بالتجارب وتعرض للمتاعب، فإن كان ذلك هو القانون السائد فى الحياة القصيرة التى نحياها على ظهر الأرض فأيّ غرابة أن يكون ذلك هو الجهاد الصحيح للخلود المرتقب؟

قال – مستهزئاً –: أهذه فلسفتكم فى تسويغ المآسي التي تخالط حياة الخلق وتصبير الجماهير عليها؟

قلت: سأعلمك – بتفصيل أوضح – حقيقة ما تشكو من شرور، إنّ هذه الآلام قسمان: قسم من قدر الله فى هذه الدنيا، لا تقوم الحياة إلاّ به، ولا تنضج رسالة الإنسان إلا فى حَرّه،

فالأمر كما يقول الأستاذ العقاد: " تكافل بين أجزاء الوجود، فلا معنى للشجاعة بغير الخطر، ولا معنى للكرم بغير الحاجة، ولا معنى للصبر بغير الشدة، ولا معنى لفضيلة من الفضائل بغير نقيصة تقابلها وترجح عليها..

" وقد يطرد هذا القول فى لذاتنا المحسوسة كما يطرد فى فضائلنا النفسية ومطالبنا العقلية، إذ نحن لا نعرف لذة الشبع بغير ألم الجوع، ولا نستمتع بالري ما لم نشعر قبله بلهفة الظمأ، ولا يطيب لنا منظر جميل ما لم يكن من طبيعتنا أن يسوءنا المنظر القبيح.. "

وهذا التفسير لطبيعة الحياة العامة ينضم إليه أن الله جل شأنه يختبر كل امرئ بما يناسب جبلته، ويوائم نفسه وبيئته، وما أبعد الفروق بين إنسان وإنسان، وقد يصرخ إنسان بما لا يكترث به آخر ولله فى خلقه شئون، والمهم أن أحداث الحياة الخاصة والعامة محكومة بإطار شامل من العدالة الإلهية التى لا ريب فيها.

إلا أن هذه العدالة كما يقول الأستاذ العقاد: " لا تحيط بها النظرة الواحدة إلى حالة واحدة، ولا مناص من التعميم والإحاطة بحالات كثيرة قبل استيعاب وجوه العدل فى تصريف الإرادة الإلهية.

إنّ البقعة السوداء قد تكون فى الصورة كلها لوناً من ألوانها التي لا غنى عنها، أو التي تضيف إلى جمال الصورة ولا يتحقق لها جمال بغيرها، ونحن فى حياتنا القريبة قد نبكي لحادث يعجبنا ثم نعود فنضحك أو نغتبط بما كسبناه منه بعد فواته ".

تلك هي النظرة الصحيحة إلى المتاعب غير الإرادية التى يتعرض لها الخلق.

أما القسم الثاني من الشرور التى تشكو منها يا صاحبي فمحوره خطؤك أنت وأشباهك من المنحرفين.

قال مستنكراً: أنا وأشباهي لا علاقة لنا بما يسود العالم من فوضى؟ فكيف تتهمنا؟

قلت: بل أنتم مسؤولون، فإنّ الله وضع للعالم نظاماً جيداً يكفل له سعادته، ويجعل قويّه عوناً لضعيفه وغنيه براً بفقيره، وحذر من اتباع الأهواء واقتراف المظالم واعتداء الحدود.

ووعد على ذلك خير الدنيا والآخرة ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

فإذا جاء الناس فقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وتعاونوا على العدوان بدل أن يتعاونوا على التقوى فكيف يشكون ربهم إذا حصدوا المر من آثامهم؟

إن أغلب ما أحدق بالعالم من شرور يرجع إلى شروده عن الصراط المستقيم، وفى هذا يقول الله جل شأنه: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠] .

إنّ الصدّيق رضى الله عنه جرد جيشاً لقتال مانعي الزكاة، وبهذا المسلك الراشد أقر الحقوق وكبح الأثرة ونفذ الإسلام، فإذا تولى غيره فلم يتأسّ به فى صنيعه كان الواجب على النقاد أن يلوموا الأقدار التي ملأت الحياة بالبؤس؟!

قال: ماذا تعني؟

قلت: أعني أن شرائع الله كافية لإراحة الجماهير، ولكنكم بدل أن تلوموا من عطّلها تجرأتم على الله واتهمتم دينه وفعله!

ومن خسّة بعض الناس أن يلعن السماء إذا فسدت الأرض، وبدلاً من أن يقوم بواجبه فى تغيير الفوضى وإقامة الحق يثرثر بكلام طويل عن الدّين ورب الدين..!

إنكم معشر الماديّين مرضى تحتاج ضمائركم وأفكاركم إلى علاج بعد علاج..

وعُدت إلى نفسي بعد هذا الحوار الجاد أسألها: إنّ الأمراض توشك أن تتحول إلى وباء، فهل لدينا من يأسو الجراح ويشفى السقام أم أنّ الأزمة فى الدعاة المسلمين ستظل خانقة؟»[1].

❁ ❁ ❁

نهاية الجزء الأوّل، ويتلوه الجزء الثّاني:

في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾

والله الموفق وهو المعين.

(١) قذائف الحق (١٧٩).